الطيف

منذ أن سكن حبّها في مواطنه، وصاريشتاق للقائها أو اللقاءات التي تغريه بها، أيقنت جيدا بأنها أحكمت قبضتها عليه، وأنّها بمثابة الهواء الذي يستنشقه، تعرف عليها لحظة إحباط قصدها لتعالجه قبل أن يقدم على مالا يحمد عقباه، الانتحار مثلا ؟

تعرف إليها في ظل خيبات الأمل حين أصابه الإحباط بعدما كان يترامى في أحضان المكاتب طالبا فرصة عمل.

كانت حبيبته كلّها فتنة وسحرا، ضياء يتلألأ كالقمر. لم يكن يعرف مغازلة البنات قبلها قط. لكن ما باليد حيلة. سكنته كما سكن هو المدينة.

راح يبثّ إليها جرحه ومأساته، بعد أن أفرغ ما بجعبته وجد نفسه يعزف على أوتار العود، يعزف نغمات الناي بأنامله وهي ترقص وتتمايل يمينا وشمالا لتزيده فتنة وسحرا.

لا مناص منها كلّما وجد بابا للحزن هرع إليها ليجدها متربعة على عرشه ملبية نداءه. لم يصارحها بحبّه ولكن كل ما بينهما رسائل شوق بين أعين تغرورق حنانا.

صار لأجلها يعدّ النجوم بالليل حتى تلفظه خيوط الفجر فيخلد إلى وسادته محتضنا ذكريات حلمه بالأمس.

أصبح يبحث عنها في كل مكان ليتعرف عليها وهي تزداد هروبا وتمنعا، واعدة إياه بالزيارة متى أدمن هواها. ستزوره متى اشتاق إليها ليعدا النجوم بالسماء ويركبا ضياء القمر سويا.

اشتد هوسه بها وصار يبحث عنها في جنبات الظلام وفي وضح النهار لعلّها تمده بجرعة من بصيص الأمل وحتى يبث إليها أشجانه. وقد شاع بالحي نبأ جنونه، ويقول أخرون بل هو حكيم التزم الصمت. وهو لا يأبه بهم مرسل خيوط الانتظار يترقب وصول حبيته كما وعدته.

أخيرا زارته، فسألها بحرقة العاشق الولهان: إلى متى ستظلين تتذللين، متى نعلن حبّنا للملأ ونقيم عرسنا على أنغام العيساوة (طابع فلكلوري) متى تسكنين إليّ.

أجابته: لكنّي أنثى من جنس آخر، من طقوس أخرى لا نعترف بالغايطة والبندير سأقبل بك متى رافقتني إلى طيف الأحلام تداعب نسماتي بأناملك.

- من دون تردد أجابها: من أجلك سأتمرد على الأعراف لأغوص في طقوسك.

أرسلت الشمس أشعتها براقة على المدينة، نهض من غفلته. ومنذ ذلك الحين يحرقه شوق اللقاء ليذوب بين حضورها وغيابها وهي تزداد تمنعا. لكن سرعان ما يزوره طيفها فيغدو عصفورا يشدوا الألحان هنا وهناك راض بلقاء طيفها.